القيادة التي تعوزنا

الدكتور معن زيادة

١ ـ النقد الذاتي ومسح الاخطاء

لعل الخطوة المنطقية الاولى التي يجب ان نبدأ بها بعد التطورات الخطيرة التي شهدتها المنطقة العربية، ولبنان خاصّة، ان نراجع حساباتنا مع انفسنا أولاً ومع غيرنا بعد ذلك. فمما لا شك فيه اننا نتحمل المسؤولية الاولى فيما آلت اليه أمورنا من هزائم واحتلالات وتواجد القوات الاجنبية على أرضنا، إضافة الى التفكك والتمزق الداخليين. وعندما أقول اننا نحن نتحمل المسؤولية الاولى فان هذه «النحن» تشمل الجميع : الحكومات والقيادات السياسية والحزبية والمفكرين والمثقفين والاكاديميين والنقابيين والطلاب والعسكريين والجميع.. كلنا مسؤولون وان بدرجات متفاوتة، ولا يجدي من قريب أو بعيد ان نلقي باللوم على الغير، على الآخر او «الهو».. صحيح ان «الهو» لا يتركنا وحدنا، وصحيح ان هذه «النحن» الكبيرة يمكن ان تتجزأ الى «نحن» معين، و«نحن» ثان وثالث، الا ان هذا لا يعفينا نحن المثقفين خاصّة من المسؤولية.

لا بد لنا من ان نبدأ بعملية نقد واسعة لسلوكنا ونمط حياتنا وتفكيرنا، ولا بد لنا من ان نحاكم قياداتنا السياسية عقلياً وفكرياً متسائلين عن أسباب الهزيمة وكيف استطاعت اسرائيل بعد ٣٥ سنة على تأسيسها ان تصبح دولة مهيمنة على المنطقة، ولم يستطع العرب رغم ثرواتهم الطائلة المادية والبشرية ان يقفوا في وجه الزحف الاسرائيلي الوحشي الذي يتهدد كل جوانب حياتنا : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بل والذي يتهدد وجودنا كمجتمعات وأفراد..

لا بد لنا من ان نحاكم افكارنا ونظرياتنا.. لا يكفي ان نقول ان الامبريالية تساند الصهيونية واننا مغلوبون على أمرنا امام خصوم، خصوم أقوياء... لماذا لا نكون نحن الاقوياء.. وما هو مصدر قوة خصومنا واعدائنا..؟ وكيف السبيل الى امتلاك القوة التي يملكها العدو، اضافة الى القوة المادية والبشرية التي نمتلكها..؟

في هذا المضمار وفي معرض حديثنا عن مراجعة افكارنا ومراجعة دور المثقفين احب ان اتناول موضوعين على علاقة مباشرة بالثقافة والمثقف ودوره : الاول، تصحيح معنى العروبة، والثاني، ضرورة الحداثة..

٢ ـ تصحيح معنى العروبة

من شأن الهزائم والانتكاسات ان تدفع بالشعوب، والمثقفين بخاصة، الى اعادة النظر فيما هم عليه من افكار ونظريات وفلسفة. بعد هزيمة عام سبع وستين وتسعمائة والف مثلا وجدنا بعض المثقفين العرب من الاتجاه القومي يتخلون عن مواقفهم الفكرية التي كانت قد تشكلت على امتداد عقدين من الزمان بعد هزيمة فلسطين وقيام دولة اسرائيل. وكان ان انقسم هؤلاء بين اتجاهين رئيسيين متقابلين : الاول يسار تخلى عن الفكر القومي لمصلحة المزيد من الاقليمية، وكان هذا الاتجاه قد أخذ بالتبلور والظهور بعد انتكاسة الوحدة بين مصر وسوريا خاصة، والثاني يميني تخلى عن مواقفه المتقدمة لمصلحة الفكر الديني والسلفي، وقد بدأ هذا الاتجاه ضعيفاً نسبياً ثم اشتد تدريجياً وبلغ أوجه مع الثورة الايرانية.

ولما كانت الناصرية عنصر استقطاب في الفكر العربي حتى هزيمة عام ٦٧، فقد اصبحت حركة المقاومة الفلسطينية عنصر استقطاب بديل بعد ذلك حتى هزيمة بيروت عام ٨٢. واليوم ونحن نسمع اللوم والنقد ينصبان على العرب، نتلمس نغمة التخلي عن العروبة والقومية العربية لمصلحة الاتجاهين السابقين اضافة الى اتجاهات اخرى أكثر خطورة وأكثر دلالة على فداحة ما وصلنا اليه. فاللوم المحقّ والانتقادات المحقة تتضمن عن وعي أو عن غير وعي ادانة الفكر القومي وتحميله مسؤولية ما جرى في لبنان خاصة وما زال يجري فيه وما ترتب وما قد يترتب على كل ذلك من نتائج.

هكذا ودون تفريق بين عرب وعرب، بين حكومات وشعوب، بين عروش وقبور، بين مصالح ومصالح، بين حاضر ومستقبل... هكذا مع ادانة الانظمة العربية تدان العروبة، ومع ادانة التقاعس العربي تدان العروبة، ومع ادانة التخلف العربي تدان العروبة، ومع ادانة الامراء والشيوخ يدان الفكر

القومي، ومع ادانة مصالح الافراد والاسر والقبائل والعشائر والبطون والافخاذ والطوائف تدان القومية العربية.. هكذا تختلط الاوراق ويحتجب وضوح الرؤية.. هكذا يتساوى صمود بيروت مع تخاذل غيرها مثلا، وتتساوى القضية العادلة مع التكتيك الخاطىء، وتتساوى البطولة مع الخيانة والنقيض مع النقيض.

الا ان القومية العربية ليست الانظمة العربية وليست الامراء والشيوخ وليست الحكام والمؤسسات الحاكمة، وليست اصحاب المصالح والامتيازات، بل ان هؤلاء جميعاهم النقيض الحقيقي للمفهوم العلمي للقومية، وادانة هؤلاء ليست ادانة للقومية، بل هي عكس ذلك تماماً، انها في مصلحة القومية وفي مصلحة العروبة.. فكما كان التنديد بالأسر الحاكمة في اوروبا وانتقاد سلطتها وسلوكها هو أحد التجليات الاولى للقوميات الاوروبية كذلك فان ادانة الانظمة العربية هو في الحقيقة في مصلحة القومية العربية نفسها.

والعروبة ليست التقاعس العربي، فقد نهضت العروبة الحديثة على انقاض التقاعس الشديد عندما اعلن العرب مقاومتهم الصريحة لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية وآثروا التضحية والاستشهاد على القبول بالتخلي عن نهجهم الجديد في ان ينتظم المجتمع انتظاماً حديثاً يأخذ بالقومية العربية بدلا من الجامعة الاسلامية التي كان يدعو لها السلطان العثماني ويشجعها. كما ان معركة القوميات في اوروبا كانت معركة الحريات العامة والديموقراطيات وحقوق الشعوب في مقابل استبداد الملوك كذلك كانت معارك القومية العربية منذ البداية، معارك ضد التخاذل والتقاعس والطغيان..

والعروبة ليست التخلف العربي في أي مظهر من مظاهره، هذا التخلف، فلقد نهضت العروبة الحديثة ضد التخلف وضد اللامساواة ومن أجل بناء مجتمع معاصر جديد يدخل العرب في الحداثة ويخرجهم من ظلمات التخلف، فقد كانت البدايات الاولى للعروبة الحديثة عندما ثار صغار الفلاحين على المقاطعجية والاستبداد، وعندما وجد المثقفون منهم ان المنهج العلماني هو وسيلتهم لمعارضة الدولة العثمانية ونظمها البالية، وعندما قادهم هذا المنهج العلماني الجديد الى تبني القومية العربية كإطار جديد ينظم المجتمع العربي تنظيماً حديثاً يساوي بين الطوائف والافراد..

والعروبة ليست الاسلام، صحيح ان العروبة بمعناها التاريخي القديم ارتبطت بالاسلام، الا ان العروبة تاريخياً شيء والقومية العربية شيء آخر. والواقع ان حركة القومية تسير في خط معاكس مع الدين، سواء في الغرب أو في الشرق وسواء في اوروبا أو في البلاد العربية، فالقومية تنشد قيام مجتمع جديد يستمد شرقيته التامة من الشعب ويستمد سلطته العلمانية من الارادة المشتركة للمواطنين، فمشروعية الدولة القومية تقوم من الداخل، من مصلحة الناس وارادتهم وحقهم لا غير...

عندما تدعو القومية العربية الى تأسيس مجتمع جديد يخرج العرب من التخلف ويدخلهم في الحداثة، وعندما يتمسك العرب بالقومية العربية بديلاً من الجامعة الاسلامية، وعندما ينشدون مشروعية جديدة للدولة تأتي من الداخل لا من الخارج، سواء كان هذا الخارج ديناً أم غيباً أم قداسةً أم حقاً الهياً، فان المجتمع المنشود ليس هو مجتمع اي نظام من الانظمة العربية الراهنة. وليس هو مجتمع مصالح الاقلية على حساب الاكثرية، وليس هو مجتمع الاقليمية التي تتشدق بالحديث عن المصالح العربية والتضامن العربي، وليس هو مجتمع تبديد الثروات الطائلة، وليس هو مجتمع التواطؤ مع الاستعمار والامبريالية، وليس هو مجتمع الخيانة، وليس هو هو مجتمع الديكتاتورية وانتهاك الحريات وكم الافواه وشراء الضمائر.

عندما يدان العرب في واقعهم اليوم فليس في ذلك ادانة للعروبة او ادانة للقومية العربية أو ادانة للفكر القومي.. ذلك ان مجتمعات العرب اليوم هي مجتمعات الاقليميات والدكتاتوريات ومصالح الأسر والعشائر والطوائف والاتوقراطيات، وواقعهم هو واقع التخلف والتمزق والتفكك.. ونهضتهم لن تكون الا بخروجهم مما هم فيه وتأسيسهم لدولة قومية حديثة..

والثقافة العربية المطلوبة هي الثقافة التي تستطيع التصدي لمعنى العروبة وتحديد معالم المجتمع الجديد..

والثقافة القومية هي الثقافة التي تتصدى للتحدي الحضاري الذي يواجهنا وهي الثقافة التي تحدد شروط النهوض وتضع برامج الخروج من التخلف..

والثقافة الوطنية هي الثقافة التي لا ترضى ان تكون مختلفة عن ثقافة العصر الذي نعيش فيه، وهي على هذا ثقافة القرن العشرين وعلومه ومكتسباته.. فالثقافة لا تكون ثقافة الا اذا كانت في صميم العصر الذي تعيش فيه، والمثقف لا يكون مثقفاً اذا كان على هامش حياة عصره أو خارجها، والمثقف العربي لا يكون مثقفاً دون

الدخول في ثقافة العصر، ولا يكون متحضراً دون الدخول في حضارة العصر، ولا يكون عالماً دون ان يكون علمه من علم العصر الذى يعيش فيه..

والثقافة الوطنية ليست ثقافة الطائفة او الانتماء الديني، وليست ثقافة التعصب وضيق الافق، وليست ثقافة الكراهية والحقد، ولا ثقافة الخنوع والاستسلام، ولا ثقافة الهيمنة الخارجية اسرائيلية كانت ام امريكية، ولا ثقافة الفكر الفاشي.. لقد لعب لبنان دوره الطليعي في البلاد العربية عندما كان واحة الحرية الوحيدة او شبه الوحيدة في صحراء مصادرة الحريات والطغيان الفكري وكمّ الافواه.. ولن يستطيع لبنان ان يلعب هذا الدور الا اذا عاد تلك الواحة التي كانها.. واذا كان ابن خلدون قد أدرك في وقت مبكر أن «الظلم مؤذن بخراب العمران» كما أدرك رفاعة الطهطاوي منذ قرن ونصف القرن أن الازدهار والتقدم لا يكونان بدون الحرية.. وكما أدرك خيرالدين التونسي العلاقة الجدلية بين الاستبداد والتخلف من جهة والحرية والتقدم من جهة أخرى، فإن لبنان لن يستطيع ان يحتل مكانه الطليعي في البلاد العربية الا بالحرية التي عرف بها.. بدون تلك الحرية يفقد لبنان دوره، لا في مجال الثقافة فقط، بل وفي كافة المجالات الاخرى أيضاً.. لأن لبنان انما نجح فيما نجح فيه بسبب تلك الحرية، وهذا ما تدركه اسرائيل..

واستطراداً فإن العروبة الحديثة والقومية العربية بمعناهما العلمي وباعتبارهما حركة تجديد وتحديث في الفكر العربي يستلزمان الحرية.

لا بد من الحداثة

تتكرر هزائم العرب.. وتتكرر مجدداً.. وتزداد وتفدح.. ويتكرر السؤال على امتداد قرنين على الاقل، قرناً بعد قرن وعقداً بعد عقد وحرباً بعد حرب وهزيمة بعد هزيمة.. ويعود السؤال تردده الاجيال، اجيال المثقفين خاصة، ويتكرر من جديد ويجول في الاذهان تحوكه العقول وتلوكه الالسن وتردده الشفاه: كيف يمكن الخروج من اللجّة وكيف يمكن تجنب الغرق؟ منذ حملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر الى الغزو الاسرائيلي للبنان في صيف ١٩٨٢، مروراً باحتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ والبريطانيين لمصر سنة ١٨٦٢ ومروراً بالانتداب وقيام دولة اسرائيل وغيرها من الهزائم والانتكاسات والضربات والصفعات، والسؤال يتكرر بعد كل هزيمة، وكل انتكاسة، وكل تراجع، وكل وقفة، وكل تهادن يسمح بالتفكير والتساؤل..

وتتكرر الأجوبة: متعددة، متشعبة، متفاوتة ومتباينة، تتراوح بين سلفية عمياء وتجديدية بلهاء، بين تبعية الماضي وتبعية الغرب، بين هروب الى الوراء وهروب الى الامام، بين الانكفاء الى الماضي واستعجال المستقبل، بين طرفين متباعدين متقاربين كلاهما يرى انه قارب شاطىء النجاة ليكتشف انه سراب في سراب.

ولا يعني هذا بحال ان جميع الاجابات كانت مجانبة للحقيقة، فمنذ البدايات الاولى للفكر العربي الحديث استطاع حاكم مستنير كمحمد علي باشا في مصر أن يدرك جدلية العلاقة بين الاصالة والتحديث، وان الاصالة لا تعني العودة بالمجتمع الى نمط من الحياة يتجاهل منجزات ومكتسبات الانسان المعاصر والحضارة الراهنة، وان الاصالة انما تعني الابداع والابتكار وخلق الشروط اللازمة والضرورية للازدهار والنهوض والتقدم ومواكبة العصر والمساهمة في الحركة العلمية، تماماً كما فعل السابقون من العرب ابّان نهضتهم وتبوّئهم مركز الصدارة في الحضارة العربية ـ الاسلامية التي ضمت الى جانب الثقافة العربية ثقافات الشعوب الاسلامية الاخرى والتي افادت من الثقافات الاخرى واستوعبت الحضارات المزامنة والسابقة، وان التحديث لا يعني التقليد دون الفهم أو النقل دون الادراك او الاستعارة دون الاستيعاب، وانما يعني الاقتباس مع المساهمة والاخذ مع العطاء والافادة من تجارب الامم الاخرى بما يلائمنا بعد تكييفه وتعديله بما يضيف اليه، فلا نكون كالببغاوات نردد ما يتلى على مسامعنا، أو كصغار العقول نطلب الجديد لجدته لا لنشوء الحاجة اليه.

وهكذا عندما ادرك محمد علي بفطرته السليمة ووعيه المتميز البسيط انه لا بد من جيش حديث يقارع الجيوش الاوروبية الغازية شرع في بناء ذلك الجيش، الا انه سرعان ما ادرك ان الجيش الحديث لا يكون بدون الدولة الحديثة وان ذلك انما يكون بالعلم والمعرفة. فشيد المدارس والكليات وأرسل البعثات واستقدم الخبراء والمعلمين وبنى المصانع وأقام الترع وقضى على التفكك الاجتماعي ونظم الاقتصاد وعقلن الزراعة لتؤمن المصادر المالية اللازمة للصناعة والبناء.. وباختصار وضع محمد علي باشا مصر على ابواب الحداثة ليرتفع بها بعد ذلك الى مصاف الدول العظمى في عصره موسعاً دائرة نفوذه من مصر الى السودان والجزيرة العربية وبلاد الشام.

لم يضطر محمد علي باشا او المجتمع الى التخلي لحظة واحدة عن الاسلام والايمان في سبيل الحداثة الا ان محمد علي ودولته الجديدة لم يسمحا لأحد من رجال الدين أو غيرهم ان يقف في وجه الحداثة باسم فهم خاص ضيق للاسلام والايمان. لقد ادرك الرجل بحسه البسيط ووعيه الذاتي كيف يمكن الخروج من التخلف وكيف يمكن الدخول في الحداثة، واستطاع بعد ثلاثة عقود من العمل المتواصل الدؤوب ان ينتقل بمصر من واقع التخلف الذي لا جدال فيه الى واقع الحداثة بكل معنى الكلمة، هذا اذا اخذنا طبيعة ظروف العصر بعين الاعتبار. ولم تتقوض تلك التجربة الرائدة الا بعد ثلاثة عقود أخرى عندما دخلت بريطانيا الى مصر وبدأت بافراغ مصر من مكتسبات وانجازات دولة محمد علي، وتلك قصة أخرى.

كان لتأسيس محمد علي دولة حديثة الفضل الاول في ظهور الجيل الاول من الرواد المفكرين الذين نظروا للخروج من التخلف والدخول في الحداثة وعلى رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوي، تماماً كما كان لمحاولات الباي أحمد تأسيس دولة حديثة في تونس الفضل الاول في ظهور مجموعة من الرواد المفكرين الآخذين بضرورة التحديث على رأسهم خيرالدين التونسي.

لم يجد هؤلاء جميعاً بديلاً للخروج من التخلف والهزائم والانتكاسات الا الدخول في الحداثة.. ولم ير هؤلاء جميعاً ان الحداثة تكون بالتقليد دون الاصالة او بالاتباع دون الابداع او أنها الاخذ بمظاهر الحياة الغربية وبهرجها الخارجي، كما انهم لم يروا ان الاصالة تكون بالعودة الى السلف في أفكارهم ونظمهم واهتماماتهم وهمومهم.

لقد حاول كل من الطهطاوي والتونسي على سبيل المثال ان يقدما لمعاصريهما فكراً يفلسف الحداثة ويثبت انها لا تتعارض مع الشريعة بل وانها من متطلبات الشريعة، فالشريعة كما يقول التونسي «لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لاسباب التمدن ونمو العمران..» فلقد قدم كل من الطهطاوي والتونسي تقريراً دقيقاً مفصلا عن الحياة الاوروبية يبين ضرورة الافادة من التجربة الاوروبية استناداً الى حتمية التطور وتبدل الازمنة وصيرورة تواريخ الشعوب والامم، بل لقد ادرك كل من الرجلين ان البقاء في التخلف وعدم الدخول في الحداثة سينتهي بنا الى ما نحن فيه اليوم. واليوم ونحن نستعيد تجربة هؤلاء الرواد لا بد لنا من ان نحذو حذوهم، فلقد قدم كل من هؤلاء برنامجاً كاملا حدد شروط النهضة وطريقة الخروج من التخلف والدخول في الحداثة وفقاً للمرحلة التاريخية التي عاشوها.. وعندما قدر لكل من الطهطاوي والتونسي الظروف الملائمة لتحقيق بعض من برامجهم وجدنا المجتمع يتقدم تقدماً ملحوظاً. ومهما يكن من أمر فقد ساهم هؤلاء في تغيير صورة مجتمعاتهم تغييراً ملحوظاً، وقد استمر اثرهم في ميدان النظر والعمل حتى يومنا هذا.

ولكن يبقى السؤال الأهم وهو: ما هي الحداثة؟

لا شك ان الاجابة عن هذا السؤال ليست بالبساطة التي تبدو لأول وهلة. فالخصائص التي تحدد الحداثة ذات شقين رئيسيين: خارجي وداخلي. الاول يتعلق بالبيئة والمحيط والعمران الخارجي، والثاني يتناول سلوك الانسان وقيمه ونظام تفكيره ومشاعره.

معالم الحداثة الخارجية سهلة التحديد نسبياً ويمكن تلخيصها بالعناوين التالية: العمران، والتعليم، وتطور وسائل الاتصال، والتصنيع، وتأسيس المؤسسات الديمقراطية الحديثة مع شرط اساسي وهو ان يتم ذلك كله وفق احتياجات المجتمع ومصلحته.. ولكن ومع السهولة النسبية في تحديد هذه المعالم الخارجية للحداثة، الا أن البحث في مضامينها اوسع من ان يستعرض في هذه العجالة.. وما يمكن الاشارة اليه هنا هو أن هذه الحداثة الخارجية تفرض انظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وادارية وتعليمية جديدة تتناول كافة اوجه الحياة الانسانية الفردية والجماعية بما فيها علاقة الفرد مع الجماعة ونمط تلك العلاقة وطبيعة انتماء الفرد وانتقال هذا الانتماء من الاسرة أو العشيرة او القرية او الطائفة الى مؤسسات من نوع جديد كالنقابة والحزب والدولة والأمة..

ومع هذا كله نقول بأن هذه المعالم لا تشكل الحداثة، انها تأتي مع الحداثة الا انها ليست الحداثة. صحيح أن العمران والصناعة والتعليم وتحديث المؤسسات تحمل بعداً تحديثياً وتساهم في انتقال الانسان من التخلف الى الحداثة، الا ان الحداثة لا تكون الا بالتفكير العلمي والعقلي وبالسلوك والشعور والقيم الجديدة التي يقتضيها هذا التفكير.

* أول مظاهر التفكير العلمي والعقلي الحديثين ان **ندرك اننا نعيش في عالم جديد** يتغير بسرعة، انه غير العالم الذي تصفه لنا كتب التاريخ والجغرافيا، غير العالم

الذي عرفه اباؤنا وأجدادنا.. ان هذا المظهر من مظاهر الحداثة هو أقرب الى الحالة العقلية او الذهنية الجديدة.. انها الاستعداد لقبول تجارب جديدة. انها حالة انفتاح العقل للتجديد قبل ان تكون اي شيء آخر.. انها ليست الكومبيوتر مثلاً وانما العقلية التي تستطيع ان تستخدم الكومبيوتر على أحسن وجه ممكن.

* المظهر الثاني هو حالة عقلية ونفسية أيضاً، الا انه يتناول **عناية الانسان بالحياة العامة** على المستوى الوطني والقومي بل وعلى المستوى العالمي. الانسان المتخلف يكتفي بما حوله من بيئة ضيقة، تنظيم صغير على مستوى الحي أو المدينة أو الطائفية مثلا.. اعتباراته الاولى ضيقة ومحلية رغم اهماله الكلي لما هو وطني وقومي وعالمي..

* نأتي بعد ذلك لما هو أهم وهو استعداد الانسان الحديث للأخذ **بالحرية** والديموقراطية بأعمق معانيها، فهو اكثر استعداداً للقبول باختلاف وجهات النظر وأكثر قبولا لحق الآخرين في حرية آرائهم ومعتقداتهم السياسية والدينية خاصة، دون سقوط الروابط الوطنية والقومية والانسانية التي تربطه بهم، ودون الخوف من ان يضطر الى التخلي عن وجهة نظره الخاصة في أي أمر من الامور، ولا سيما رؤيته للعالم والحياة والحاضر والمستقبل..

ومبدأ **الحرية** هذا يعني في التطبيق العملي انه ليس على الانسان ان يقبل آراء من هم فوقه أو ان يفرض آراءه على من هم تحته في الاسرة او العمل او المجتمع ككل.. ولا يكفي هنا القبول النظري او الظاهري بالحرية والديموقراطية، فان المحك الفعلي لهذا المبدأ انما هو السلوك الفعلي والعملي للانسان..

* نأتي بعد ذلك لقضية **الزمان**، فعلاقة الانسان مع الزمان هي أحد المعايير الرئيسية التي تحدد ما اذا كان الانسان محدثاً أم متخلفاً، فاذا كان الفرد، وأكثر من ذلك المجتمع، يعنى بحاضره ومستقبله اكثر من عنايته بماضيه فانه يقترب بذلك من الحداثة ويبتعد عن التخلف.. اضف الى ذلك ان الانسان حديث التفكير هو الذي يحترم الوقت، وقته ووقت الآخرين، وهو الذي يبرمج عمله رابطاً بين العمل والزمان.

* ويقترب موضوع **التخطيط** من موضوع الزمان، فالانسان الحديث والمجتمع الحديث هما ذلك الفرد والمجتمع المؤمنان بالتخطيط والتنظيم في مقابل التخبط والارتجال.

* يأتي بعد ذلك **الاتقان**.. الاتقان في العمل هو طريق النجاح.. والاتقان في النضال هو طريق النصر، والاتقان في المجتمع هو طريق التقدم.. ويرتبط بالاتقان الدقة واعتماد القياس الكمي في مقابل الحكم العشوائي.

* يأتي بعد الاتقان **الايمان بالعلم** والتكنولوجيا.

* ويأتي بعد الايمان بالعلم والتكنولوجيا **احترام الانسان** كقيمة في حد ذاتها، فالانسان حديث التفكير هو الانسان الذي يحترم الانسانية.. من خلال معاملته للآخرين من بين جنسه على قدم المساواة دون تفريق، ولعل محك ذلك تعامل الرجل مع المرأة، والكبير مع الصغير..

* وأخيراً لا آخراً فإن الحداثة انما تعني **العدالة** في إتاحة الفرص والعدالة في التوزيع.. وذلك يعني ان تكون مكافأة الانسان على انتاجه لا على أي اعتبار آخر..

وقد يكون هناك معالم أخرى للحداثة غير ما ذكرت، كما قد يكون هناك طرق أخرى لتعريف الحداثة غير التي اخترت.. وقد يرى البعض ضرورة اضافة موضوع حرية المرأة أو كيفية معاملتنا لاطفالنا ونسائنا.. وقد يرى البعض الآخر ضرورة التركيز على العوامل الروحية على حساب المادية أو غير ذلك..

ولكن ومهما غيرنا او بدلنا من معالم الحداثة، فإن الحقيقة تبقى وهي اننا، افراداً ومؤسسات، بعيدون جداً عن الحداثة بمعانيها الحديثة، ولا ضرورة هنا للدخول في التفاصيل، فان استعراضاً سريعاً لسلوكنا وتعاملنا مع الامور كفيل بأن يرينا الهوة الشاسعة التي كانت وما زالت تفصلنا عن الحداثة..

ولما كان موضوع الحداثة على صلة مباشرة بالثقافة، فان المثقف لا يكون مثقفاً عندما يكون خارج الحداثة، ولا تكون مهماته مهمات ثقافية عندما تكون خارج مهمات الدخول في الحداثة، ولا يكون هدفه هدف المثقف عندما لا يكون على علاقة مباشرة بموضوع الحداثة..

اما اذا استعرضنا الوسيلة التي يمكن عبرها الولوج الى الحداثة فاننا لن نجد الا التعلم والتعليم بمعناهما الواسع وباشكالهما المختلفة.. وسواء كان توجهنا اشتراكياً أم رأسمالياً، يمينياً أم يسارياً، فان التعلم والتعليم، أو بتعبير آخر التربية، هي وسيلتنا الى الدخول في الحداثة.. والتربية هنا ليست مقصورة على التعليم كما

ان التعليم هنا ليس مقصوراً على التعليم المدرسي وحده التعليم المدرسي هو أحد اشكال التعليم.

* التعليم عبر وسائل الاتصال الموجهة هو شكل آخر من اشكال التعليم. التعليم في المصنع هو شكل ثالث من اشكال التعليم..

* التربية الوطنية في الجيش هي شكل رابع من اشكال التعليم..

* التعليم عبر المؤسسة السياسية والحزب السياسي هي شكل خامس من اشكال التعليم..

ولكن ومهما اختلفت اشكال التربية واشكال التعليم فانها يظلان على اتصال مباشر بالثقافة والمثقف.. ولا تستطيع الثقافة ان تكون بعيدة عن هذه المهمة ولا يستطيع المثقف ان يكون على هامش هذه المهمة دون ان يفقدا معناهما ودورهما.. فالثقافة والحداثة امران متداخلان لا ينفك احدهما عن الآخر.. واذا كان موضوع بحثنا هو المثقف والثقافة ومهماتها، فان هذا البحث - في رأيي - لا يكون بحثاً جدياً دون البحث في الحداثة ومعالمها وكيفية الدخول فيها..

٤ - ازمتنا أزمة قيادة

عندما أتحدث عن الحداثة هنا فانني لا اتوقع ان ينتظرنا العالم وان ينتظرنا عدونا حتى يتم تحديث المجتمع بجميع فئاته وأفراده.. فذلك أمر مستحيل لأن العالم يسير دون الالتفات الى الوراء، ولأن عدونا فوق رؤوسنا يريد الاجهاز علينا. انما قصدت من بحثي هذا ان أحدد مواصفات القيادة التي كنا وما نزال نفتقدها.. ولا أريد الدخول في التفاصيل هنا، كما لا اريد عقد المقارنات بين المواصفات التي طرحتها قياداتنا السياسية والحزبية والتنظيمية، بل وقياداتنا الفكرية والاكاديمية والثقافية أيضاً.. ما اردته هو ان أبين الهوة الكبيرة التي تفصل قياداتنا عن الحداثة.. اما اذا دخلنا في التفاصيل وعقدنا المقارنات فاننا سنكتشف العجب العجاب..

الدرس الاول والأهم الذي يمكن استخلاصه من تجربة محمد علي الريادية التي أشرت اليها هو أهمية القيادة ودورها، فعندما توفرت هذه القيادة لمجتمع مفكك مشرذم ومتخلف كالمجتمع المصري الذي كان خارجاً لتوه من حكم فلول المماليك الذي دام طويلاً وانتهى بالحملة الفرنسية ثم بتسلم محمد علي لمقاليد الامور، عندما توفرت هذه القيادة الواعية الحازمة تجنب المجتمع الكثير من الاخطاء والانحرافات والسير في الطرق المتعرجة واتجه مباشرة نحو الهدف المباشر وهو تأسيس دعائم الدولة الحديثة. ونحن الآن عندما نقوم بمراجعة شاملة لحساباتنا مع أنفسنا نكتشف ان أزمتنا الراهنة يمكن ان تتلخص في كلمة واحدة هي : القيادة.

والدرس الاول الذي يمكن ان نتعلمه من عدونا القابع فوق رؤوسنا، عدونا الذي استطاع في فترة وجيزة من الزمن ان يوحد مجتمعه بفئاته المتباعدة وان يعبيء هنا هذا المجتمع وان يسلحه ويجعله قادراً على الانتصار، عدونا المتسلح بالعلم والتكنولوجيا الحديثين، هو القيادة: القيادة التي أصرت على اقامة دولة ليس لها شروط الدولة.. والقيادة التي خططت وناضلت لتثبيت دعائم هذه الدولة.. والقيادة التي عملت كل ما في وسعها لجعل هذه الدولة قوية.. القيادة التي تقاتل وتستشهد.. القيادة التي تتقدم الصفوف.. القيادة التي تدرك ان القيادة تعني المزيد من المسؤوليات لا المزيد من المكتسبات وان القيادة تعني المزيد من الاعباء لا المزيد من الصلاحيات..

والدرس الاول الذي يمكن ان نتعلمه من هزيمتنا الاخيرة هو انه لا ينقصنا الصمود ولا تنقصنا البطولات ولا تنقصنا الشجاعة ولا تنقصنا الامكانات المادية ولا الامكانات البشرية... وان ما ينقصنا هو القيادة التي تستطيع ان توظف هذا الصمود وهذه البطولات وهذه الشجاعة الخارقة وتلك الامكانات التي لا حدود لنا.. القيادة الحديثة التي تدرك طبيعة العالم الذي معين فيه وصراعات هذا العالم وحدود هذه الصراعات وحدود دعم حلفائنا لنا.. والقيادة التي تنقل معاركنا من المستوى الاقليمي الى المستوى القومي.. القيادة التي لا تستدرجها المكتسبات الاقليمية الضيقة.. والقيادة المؤمنة بالانسان كقيمة في ذاته والمؤمنة بحق هذا الانسان في الحرية وحقه في التعبير وحقه في القول وحقه في التفكير وحقه في العمل.. القيادة التي تخطط وتتقن وتؤمن بالعلم.. القيادة التي تخرج من حدود التفكير القبلي والعشائري والاقليمي..

القيادة التي تستطيع ان تضع المجتمع على طريق الحداثة، السلاح الاول والامضى.. السلاح الذي لا بد منه لاحراز النصر..

بيروت